

الوهراني صاحب المنامات حياته وآثاره

د.سلطاني الجيلاني

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران

رغم الجهود التي بذلت في عصرنا الحديث لإنقاذ تراثنا المغربي، إلا أنها جهود لم ترق إلى الهدف المنشود أو المقام المرموم، ذلك أن هذا التراث ما يزال ميدانه بحراً، وما تزال فيه جوانب متعددة لكثير من الأبحاث والدراسات في مختلف العلوم والفنون.

إننا نجد المشارقة مهتمين بتراث أسلافهم منذ زمن ليس بقصير، إذ أمعنوا النظر فيه، باحثين مستقصين، فتحققوا ما وقع تحت أيديهم من كتب العلم والمعرفة باعثين بذلك جهد سابقيهم من دهاليز النسيان إلى مطالع الشمس وضحاها، فعمرت بذلك مكتباتهم وأوعية ثقافتهم من خيرة ما ألف آجدادهم وأسلافهم.

أما نحن أهل المغرب، فماذا فعلنا بتراثنا؟ وإلى أي درجة استفدنا منه؟ وإلى متى نبقي عليه في مخازن البوار والفناء؟ أم أنها بحكم موقعنا الجغرافي الحاذلي لأوروبا، استهانتنا بالحضارة الغربية، فانقطعت الصلة أو كادت تنقطع بيننا وبين تراثنا، ولاسيما بعد أن أقبل العصر الحديث، وحمل إلينا مدنيته الحديثة، وما تفرضه علينا من أساليب الحياة والتفكير، فباعد بيننا وبين القدماء، وغير طبائعنا وأمزجتنا وأذواقنا وجعل الصلات بيننا وبين المحدثين من أهل الغرب أدنى وأقرب من الصلات بيننا وبين القدماء من أهل تلمسان ووهران وتيهور ومجاية وقسنطينة وغيرها.

إننا لا نحب لتراثنا أن يضل تراثاً مطموراً، ولا مطويًا في الخزائن والأرشيف إننا نريد له النهضة والابناث، فهو أساس ثقافتنا، ومقوم شخصيتنا الوطنية ومحقق لقوميتنا، وعاصم لنا من الفناء في الأجنبي، وهو وبالتالي معين لنا أن نعرف أنفسنا وهويتنا.

إننا نملك تراثا علميا وأدبيا لعلماء لهم سمعتهم ومكانتهم العلمية في مشارق الأرض وغاربها، إننا بكل بساطة نملك علماء جزائريين لهم ذكر عند أهل حلة العلم والثقافة، منهم على سبيل المثال لا الحصر، ابن محرز الوهراوي صاحب كتاب "المنامات"، وأبو زيد عبد الرحمن بن أحمد البجائي صاحب كتاب "الجامعة في الأحكام الفقهية"، وأبو عبد الله محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني السنوسي الإدريسي مؤلف كتاب "بغية المقاصد وخلاصة المراسد"، والحسين ابن محمد السعيد الورتلاني البجائي صاحب كتاب "نزهة الأنوار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وأبو راس محمد بن احمد بن عبد القادر العسكري المشارك في الفقه والأدب والحديث وغير ذلك من العلوم، ألف كتابا كثيرة منها "مروج الذهب في النسب" و"ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس" و"ودر الصحابة" فيما دخل المغرب الأقصى من الصحابة "وغيرها من الكتب التي دلت على علمه وتبرزه في هذا الاتجاه.

والحق أنه لما نشق على طلابنا ونكلفهم بقراءة التراث، وعندما نلح عليهم بالبحث في هذا الموروث، ليس ذلك بداعف التعرض لترغبة معينة، ولا من منطلق التأثر بعواطف الشوق والحنين، ولكن من أجل إثبات شخصيتنا وهويتنا، كامة لها حضارة وتأريخ.

إننا نربد بكل اختصار، أن نزيل الغبار وغليط اللثام عن هذا التراث، لنعرف الوهراوي، والتلمساي، والمستغانمي، والهجاوي، والبغدادي، والقسنطيني، وغيرهم من أنجحتهم الجزائري عبر مراحلها التاريخية المختلفة.

إننا نقر مسبقا بصعوبة البحث في تراثنا، ونعرف بأن المسؤولية ملقة على عاتقنا، وأن أدوات البحث ووسائله مركزة في أغلب الأحيان على الجهد الذاتية والفردية، وأن مادة البحث في حد ذاتها يصعب الوصول إليها، فمنها ما أهلكه الدهر وعيشت به يد الزمن، ومنها ما صودر أثناء الاستعمار، ووضع في مكتبات أجنبية، ومنها ما هو موجود في مكتبات خاصة يتلذذ بها أشخاص ربما لا علاقة لهم بالعلم والثقافة.

إننا ههنا، في وهران، نعرف "سيدي الهواري" ونسمى أبناءنا باسمه تيمناً وتبراً، نعرفه ولها صالحاً وكفى، فإذا ما استثنينا أهل الاختصاص، وسألنا عن صاحب هذا الضريح، فان الإجابة لا تتعذر بأنه ولد الكرمات الظاهرة والأحوال الباهرة.

والحق أننا لم نخفل بعلمائنا بالقدر الذي حفل به علماء المشرق، فإذا كان المشارقة يهتمون بعلمائهم فيقيمون لهم للذكر، المهرجانات الثقافية والملتقيات العلمية، فإننا لا نحسن إلا أن نقيم لبعض علمائنا أو قل لبعض أوليائنا احتفالات موسمية تقدم فيها الذبائح والولائم. إن شارعاً من شوارع وهران سمى باسم "ابن محرز الوهري"، فمن تكون هذه الشخصية؟ وما وزنها أو ما قيمتها التاريخية والعلمية.

أولاً: ابن محرز حياته وثقافته:

هو أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهري الملقب ركن الدين أو جمال الدين⁽¹⁾، نشأ بوهران، ثم رحل إلى المشرق فمر بصفلية، ثم انتقل إلى بلاد الشام ودخل دمشق في عهد نور الدين محمود بن زنكى (541—569 هـ). ولما كانت بغداد دار الخلافة وقتئذ، فقد زارها سنة 555 هـ، ثم عاد إلى دمشق سنة 556 هـ فولى الخطابة بجامع داريا وهي قرية في الغوطة على مقربة من دمشق⁽²⁾.

وزار الوهري مصر في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي (564—589 هـ)، فلقي القاضي الفاضل والعماد الكاتب الأصفهاني وغيرهما من الكتاب في ميدان الإنشاء، وعاد إلى داريا وفيها توفي سنة 575 هـ⁽³⁾. والوهري عالم وأديب، متعدد نواحي الشخصية، له مشاركة في الأدب والفقه والعلم والفلسفة، إلا أن الأدب أغلب عليه، وكانت له معرفة بألفاظ الفرق الإسلامية الظاهرية والباطنية، ويظهر أن له اطلاع ودرأية بعلم الفلك، فقد كان يوظف كل ذلك في آثاره الكتابية.

ثانياً: آثاره

وللوهري من المؤلفات "جليس كل ظريف" و"المنامات"، توجد مخطوطة من الكتاب الأول تحمل رقم ah 665 / 1 بجامعة برنستن بالولايات المتحدة الأمريكية⁽⁴⁾، وهو كتاب جمع فيه الكثير من رسائله وفصوله الهزلية، ومنه قوله في المقامات الفاسية⁽⁵⁾:

دخلت مدينة فاس في أيام أبي العباس، فرأيتها تجاوز الأوصاف علي طريق الإنفاق، فعشقتها شيطان فأقمتها مقام أو طابي، فحضرت يوماً في بعض بساتنها مع قوم من أهل دينها، وفيهم أبو الوليد القرطبي سلطان الكلام يأمره فيوالفة وبنهاء فلا يخالفه، وجرى بينهم حديث أهل البلاد ومن فيها من الأعيان والقاد، فقالوا: يا أبو الوليد، أنت حجر محكنا وبودقة سبكتنا، وهذا نحن سائلوك ففضل من يستحق وعيوب، ليميز الخبيث من الطيب.

قال: أنا أوضح إشكالكم فسائلوا عما بدا لكم، قلنا: ما تقول في القاضي أبي القاسم؟ قال: علم من الأعلام وشيخ الإسلام ومنجز الأحكام وحاكم الحكام، غير أنه — رحمة الله — يتاعس للخصمين فلا يوقفه إلا صلصلة الكفين، ولو قضت على أنفه بالكلبتين ...، قلنا: بما تقول في ابن الأبار؟ قال: رجل عطار وبائع أبزار، فإن تناول غير هذا فهو بيطار، يتعلم حجامة الحجام في أقفيه الأيتام قلنا: بما تقول في ابنه أبي بكر؟ فرد وجهه وقطب، وقام على أن يذهب، وقال: أبي بكر انقلب. قال الراوي لهذه الحكاية: فعنفته لهذه الرواية، فقال: إني في كل هذا مغرور، وما هي إلا نفحة مصدرة، وأنشد:

إذا أنا لمأشكر على الخير أهله ولم أذم الحسين اللئيم المذمما
ففي عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامع والفما
قال: فودعناه وسار القوم، وخرجنا من في ذلك اليوم.

وأما "المنامات" فقد أودع فيه مقاماته ورسائله، وصف الصافي طريقة الوهري في تأليفه فقال "سلك فيه مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران، ولكنه ألطف مقصداً وأعذب عبارة"⁽⁶⁾، ومدحه ابن خلkan فقال: "ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكافاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوة"⁽⁷⁾.

وله في "المنامات" جواب طويل على رسالة وردت إليه، وقد سلك فيه مسلك الترسل حيناً ومسلك المقاومة أحياناً، ثم طواه على منام زعم أنه رآه، وهذا الجواب الرسالة المقدمة طويلاً يبلغ نحو سبع وعشرين صفحة.

: (8) **وَمِنْ إِجْوَابِ قَوْلِهِ**

.. ثم ترتفع الغوغاء، وإذا بموكب عظيم قد أقبل من المقام الحمود كأفهم الشموس
والأقمار، ركبان على نجائب من نور يؤمنون المشرعة العظمى من الحوض المورود. فسألنا
عنهم فقيل لنا: هذا سيد المرسلين، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، في أصحابه
وأهل بيته، فنجري خلفه ونجهد أنفسنا في طلبه فلم نصل إليه من شدة الزحام. فطلعنا
على تل مشرف من جبال الأعراف نرقبه حتى عبر علينا، عن يمينه أبو بكر وعن يساره
عمر، وبين يديه أولاده الصغار مع الحسن والحسين وعثمان يقدمهم. ومن ورائهم حمزة
والعباس وجعفر وعقيل، وبقية أصحابه يمشون في ركابه مع المهاجرين والأنصار، وهو
يصفى أحيانا إلى حديث علي عليه السلام وتارة إلى عثمان، وهما فيما بينه وبين أولاده
الصغار، والناس يضجون بالبكاء ويشيرون إليه بالأيدي ويستغشون عليه من كل مكان.

وعلى الجملة، فإن الوهراوي منشئ ظريف بارع في وجوه الصناعة اللفظية، فنان في استخدام البديع في مقاماته ورسائله، لا يتركه إلا نادراً، وكانت تسعفه في ذلك حافظة نادرة، وبديهة حاضرة، وإحساس دقيق باللغة ومترادافاها واستعمالها المختلفة، فكان يصوغ ألفاظاً بل أنغاماً من الكلام ويصبغها بالألوان الفنية التي كانت معروفة عند معاصريه.

الهوامش:

- ابن خلkan، وفيات الأعيان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، المجلد الرابع ص 358 ، دار صادر بيروت: د. ت 1

— المصدر نفسه، وينظر الدكتور عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي: 5 / 445 ، دار العلم للملايين، بيروت: ط 1، 1982 م . 2

— ابن خلkan، وفيات الأعيان: 4 / 358 . 3

— ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: ط 1 ، 1971 م . 4

— ينظر ابن محزز الوهري، منامات الوهري ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان و محمد نعش، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر 1967م 5

— الصفدي، الواي بالوفيات، تحقيق ديدرنغ: 4 / 386 — 389 . 6

— ابن خلkan، وفيات الأعيان: 4 / 358 . 7

— ينظر ابن محزز الوهري، منامات الوهري ومقاماته ورسائله. 8